العصر الجاهلي

يطلق العصر الجاهلي على ما قبل ظهور الإسلام في الجزيرة العربية بقرن ونصف، ويكتفي الباحثون في الأدب بهذه الحقبة الزمنية، وهي الحقبة التي تكاملت للغة العربية منذ أوائلها خصائصها، والتي جاءنا عنها الشعر الجاهلي. من أجل ذلك نقف بالعصر الجاهلي عند مائة وخمسين عامًا قبل الإسلام، وما وراء ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولى، وهو يخرج عن هذا العصر الذي ورثنا عنه الشعر الجاهلي واللغة الجاهلية.(١)

وكلمة الجاهلية التي أُطلقت على هذا العصر ليست مشتقةً من الجهل الذي هو ضد العلم، إنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السَفَهَ والغَضَب والحُمْق.(٢) وذلك الاسم أطلقه المسلمون ليدلوا على ما انتشر بين العرب قبل الإسلام من فساد وشر وحروب. كما أن شبه الجزيرة العربية يتميز معظمها بطبيعة صحراوية يسود أرضها الجَفاف، وقد طبعت الصحراء أخلاق العرب بطابعها فتحلّوا منذ القِدم بالشهامة والكَرم والوفاء والنجدة وحُب الحرية وإباء الضَيم، وكانت هذه الصفات موضوعات خصبة أمَدَّت الأدب العربي بمعظم أفكاره ومعانيه.

---

(١) شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي*، الجزء الأول: *العصر الجاهلي* (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٤-١٩٧٦م)، ص ٣٨.

(٢) انظر مادة جاهلية في دائرة المعارف الإسلامية.

حياة العرب الاجتماعية والأخلاقية والدينية

حياة العرب الاجتماعية

كان العرب في الجاهلية فريقين: أهل البادية، وأهل الحضر.

أ ـ **أهل البادية**: وهم أكثر سكان الجزيرة العربية، وكانت حياتهم غير مستقرة، فهم دائما يرحلون وراء الماء والكَلأ. وكانت العلاقة بين القبائل علاقة عداء غالبًا، فسادت بينهم الحُروب والغزوات وانتشرت بيهم عادة الانتقام والأخذ بالثأر، ولكثرة المجاعات ظهر الكَرَم، ولكثرة الغارات ظهرت الشجاعة وقَوِيَت العصبية القبلية، ولذا كثر في شعرهم الفخر.

ب ـ **أهل الحَضَر**: وهم أهل المدن وكانت حياتهم مستقرة يعملون في التجارة وبعض الزراعة والصناعة، ومن أولئك الحضر سكان مُدن الحجاز مكة ويثرب والطائف، وقد انتهت إلى قريش الزعامة التجارية لتوسط موقعها بين الشام واليمن، كما انتهت إليها الزعامة الدينية لإشرافها على الكعبة. وكان موسم الحج فرصة لإقامة أسواق تجارية في (عكاظ وذي المجنة وذي المَجاز) وفي هذه الأسواق كانت تُلْقَى القصائد والخُطب وهذا مما ساعد على سيادة لغة قريش وتأثير لهجتها في جميع القبائل وهيأها لينزل بها القرآن الكريم عند ظهور الإسلام.

أخلاق العرب

كانت لعرب الجاهلية أخلاق كريمة أقرّها الإسلام، ولهم أخلاق ذميمة أنكرها الإسلام، فمن أخلاقهم الكريمة: الصدق والوفاء والنجدة والشجاعة والكرم.. أما عاداتهم القبيحة فكان من أفظعها الغزو والعصبية القبلية وكذلك وأد البنات، وهناك عادات أخرى ذميمة مثل شُرب الخمر ولَعب القمار.

حـياة العرب الدينية

كان معـظم العـرب من الـوثنيين يعبدون الأصنام، وبعضهم يعبد الشمس والقمر، وكان قليل منهم يدينون باليهودية والنصرانية، وبعضهم بحث بعقله عن الله. ولا نكـاد نصل إلى أواخر العصر الجاهلي حتى نجد استعدادًا لفكرة الإله الواحد، وخاصة عند طائفة كانت تدعي باسم الحنفاء. وكانت تشك في الدين الوثني القائم، وتلتمس دينًا جديدًا يهديها في الحياة. ولم يكن هؤلاء الحنفاء في مكة وحدها، بل كانوا منتشرين في القبائل ومن هؤلاء قس بن ساعدة الإيادي، وأبو ذر الغفاري، وأمية بن أبي الصلت. ويمكن أن ندخل فيهم كثيرين ممن حرَّموا على أنفسهم في الجاهلية الخمر والسُكر والأزلام مثل عبدالمطلب بن هاشم، وقيس بن عاصم التميمي، وحنظلة الراهب.

ولا نشك في أن صنيع هؤلاء إنما كان شكًا في حياتهم الدينية، وكل ذلك يؤيد ويؤكد أن الوثنية الجاهلية كانت على وشك الانحلال، فما انبلجت أضواء الإسلام، حتى اعتنقه العرب ودخلوا فيه أفواجا.[1]

---

(١) شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي*، الجزء الأول: *العصر الجاهلي* (القاهرة: دار المعارف، ٧٤-١٩٧٦م)، ص ص ٩٦-٩٧.

من الشعر الجاهلي:

حِكَم وتَجارُب

لزُهَيْر بن أبي سُلمى

الشاعـــر

هو زُهير بن أبي سُلمى المُزَنِيّ، كُنِّيَ أبوه بابنته (سُلْمَى) فقيل له (أبو سلمى). وقد نشأ زهير في بيت عُرف بالشعر، وأنجب ابنين كانا شاعرين هما (كَعْب وبُجَير). عاش زهير عُمرًا طويلاً نحوَ تسعين عامًا، وقد أتاح له ذلك أنْ يكون حكيمًا عظيم التجارب ذا أفكار صادقة. وقد كان زهير يُسمى (بصاحب الحَوْليات) لأنه لا يُنْشِدُ القصيد إلاّ بعد حَوْل يَقضيه في ترتيبها وتنظيمها وهذا يدل على اهتمامه بأدبه. تُوفي قبيل الإسلام.

جـــو النـــص

هذا النص جزء من معلّقة[1] زهير التي بلغت أكثر من ستين بيتًا، وتناولت أغراضًا متعددة، فقد بدأها بالغزل والوقوف على الأطلال ووصف البقر والغزلان، ثم مدح السيدين (هرم بن سنان والحارث بن عوف) اللذين أصلحا بين قبيلتي (عَبْس وذُبيان) بعد حرب استمرت زمنا طويلا وكادت تفنيهما. وبعد مَدْحِ السيدين نَفَرَ من الحرب، وألقى النصائح والحِكَم وهي موضوع درسنا.

النـــص

١- سئِمْت تكـاليفَ الحياةِ وَمَنْ يَعِشْ ثمانـينَ حَوْلاً - لا أَبَـا لَكَ - يَسْـأَمِ

٢- وَأَعْـلَمُ عِلْمَ الْـيَوْمِ وَالْأَمْس قَبْلَهُ وَلَـكِـنَّني عَنْ عِلْمِ مَا في غَدٍ عَمِ

٣- وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْـلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ عَلَى قَوْمِـهِ يُسْـتَغْنَ عَنْـهُ وَيُذْمَـمِ

---

(١) المعلقات قصائد طوال، من خير شعر العرب في العصر الجاهلي. وسميت «معلقات» لأنهم كما قيل كتبوها وعلّقها بأستار الكعبة، انظر: *مصادر الشعر الجاهلي*، للدكتور ناصر الدين الأسد، ص ١٧٢.

٤- وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنَلْنَهُ ... وَإِنْ يَرْقَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ
٥- وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ ... يَكُنْ حَمْدُهُ ذَمًّا عَلَيْهِ وَيَنْدَمِ
٦- وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ ... يُهَدَّمْ وَمَنْ لَا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ
٧- وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ ... وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ
٨- وَكَائِنْ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ ... زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ
٩- لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ، وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ ... فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ

المفـــردات

سئمت: كَرِهْتُ، مَلَلْت - تكاليف: صِعاب وأعباء - حَوْلا: عاما - لا أَبالك: جملة دُعائية تقال في المدح والذم، والمراد بها هنا المدح - عَمٍ: جاهل - ذا فضل: صاحب زيادة في مال أو غير ذلك - هاب: خاف - أسباب السماء: طُرُقُها - في غير أهله: فيمن لا يستحق - يَذُد: يدافع - الحوض حوض الماء، والمراد ما يجب على الإنسان حمايته - خليقة: خُلُق - خالها: ظنها - كائن: كثيرا

الشـــرح

- لقد كَرِهْتُ الحياة ومتاعبها، ومَنْ يعش مِثلي ثمانين عامًا فلاشك يشعر بالْمَلَل.
- إنني أعرف ما يحدث في الحاضر وما حدث في الماضي ولكنني عاجز عن عِلْمِ المستقبل.
- ومَنْ كان صاحبَ مال أو جاه ولم يُفِدْ بهما قومَه استغنَوْا عنه وكرهوه.
- ومَنْ خاف من الموت أو حاول الفِرار منه، فإن الموت ملاقيه وإن حاول الهرب إلى السماء بسُلَّم.
- العاقل من قَدَّم المعروفَ لمن يستحقه كي لا يندم على فعله.
- الذي لا يدافع عن حقه بسلاحه تنتهك حُرْمَتُه، كصاحب حَوضِ الماء إنْ لم يَحْمِهِ تَهَدَّمَ، وإذا لم يكن الإنسان قويًا ظالمًا فإنَّ الناس يظلمونه.

- ومهما حَاوَلَ الإنسان أنْ يُخْفِيَ خُلُقًا فيه فلابد أنْ يظهر ويعلمه الناس.
- وكثيرا ما تُعْجَبُ بشخصٍ ساكتٍ، فإذا تكلَّمَ ظهرت حقيقتُه زيادة أو نقصًا.
- المَرْءُ بأصغريه قلبِه ولسانِه، وبهما يُعَبِّرُ الإنسان عن عقله وعِلْمِه، وفيما عدا ذلك لا قيمة له.

التعلـــيق

- اشتملت الأبيات على حِكَمٍ كثيرة دلَّت على خبرة الشاعر بالأيام وتجاربه الكثيرة في الحياة.
- هذه الحِكم صالحة في معظمها لأن نردِّدَها في أيامنا الحاضرة فهي حِكم خالدة.
- ظهر فيها أثر البيئة العربية كَذِكْرِ الحَوْض في البيت السادس فإنَّ للحوض دورًا مهمًا في حياة عرب الجاهلية.
- قد يبـدو لنا بعض التناقُض بين دعوة الشاعر إلى السلام، وهو الغرض الرئيس للمعلقـة وبين قوله: (ومَنْ لا يَظْلِمِ الناسَ يُظْلَمِ)، لكننا نلتمس له عذرا لأن العصْرَ الذي قال فيه ذلك لم يكن فيه قانون يُحْتَكَم إليه، ولم يكن الاحتكام إلاَّ للسيف والرمح.
- عَبَّر الشـاعر عن أفكاره بأسلوب سهل بعيد عن التعقيد وغريب اللغة، وهو في سهولته يُشْبِهُ أساليب العصر الحديث.
- كاد الخيال يَختفي في هذه الحكم، لأنَّ الحِكْمة تعتمد على الإقناع العقلي أكثر من اعتمادها على العاطفة والخيال، ومع ذلك نلاحظ الاستعارة المكنية الجميلة في قوله: (مَنْ هَابَ أسبـابَ المنـايا يَنَلْنَهُ) فقد جعل أسباب الموت صيَّادًا ماهرًا قادرًا على ملاحقـة كلِّ مَنْ يَفِرُّ منه كما نلاحظ جانبًا من المُحَسِّنَات البديعية، كالطِّبَاق بين (الأمس، غدًا)، و(حَمْدُهُ، ذَمًّا) و(تَخْفَي، تُعْلَمِ) و(تَخْفَى، تُعْلَمِ)، وذِكْر الشيء وضدِّه يُقَوِّي المعنى ويؤكده.
- يمتـاز أسلوب زهـير بقـوة الألفاظ ومُتَانَة العبارة مع الوضوح والبُعْدِ عن التعقيد

وغـريب اللغـة، وليس بغـريب أنْ يجعله أمـير المؤمنين عمر بن الخطاب (شاعر الشعراء) لأنه لا يتتبَّع غريب الكلام، ولا يجنح إلى التعقيد، ولا يقول مالا يعرف، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه.

المناقـــشة

أولا: ضع علامة (√) أمام التكملة الصحيحة

١- يرى الشاعر أنَّ مَن يَعِشْ طويلا:
أ) يَسْعَد بحياته.
ب) يَسْأَم من حياته.
جـ) يتأخر عن الجماعة ويتخلف.

٢- يعتقد الشاعر أنَّ ظُلْمَ الناس:
أ) خطأ عظيم.
ب) أَمْرٌ محمود.
جـ) أمرٌ ضروري.

٣- البخيل في رَأْي الشاعر:
أ) نادم على ما فعل.
ب) محترم من الناس.
جـ) مكروه من الجميع.

٤- يَحْكُمُ زهير على الناس من:
أ) مظهرهم.
ب) أقوالهم.
جـ) وجوهـــهم.

ثانيًا: أجب بكلمة صحيح أو غير صحيح مع تصحيح الخطأ

١- في رَأْي زهير أنَّ عمل الخير واجب دون قيد أو شرط.
٢- الهرب من الموت مستحيل.
٣- ينجح المرء دائمًا في إخفاء طِباعه عن الناس.
٤- المرء بأصغريه: قلبه ولسانه.

ثالثًا: اذكر البيت المناسب لكل معنى من المعاني الآتية

١- الإنسان بلسانه لا بمظهره.
٢- لا مَفَرَّ من الموت.
٣- الطَّبْعُ يغلب التَّطبُّع.
٤- لاعِلْم لنا بالمستقبل.

رابعًا: اختر من المجموعة (ب) ما يعاكس معنى المفردات في المجموعة (ا):

(ا)	(ب)
كـريم	يعلـم
يجهـل	بخـيل
تَخْفَـى	يهـدم
يَبْنِـي	تظهـر
يمـدح	حيـاة
مـوت	يـذم
	يكـره

خامسًا: أجب عن الأسئلة الآتية

١ ـ كيف يعيش كبير السنّ من وجهة نَظَرِ الشاعر؟ ولماذا؟

٢ـ ما واجبك نحو قومك إنْ كنتَ ذا فضل؟

٣ ـ لِمَ يحاول كثير من النّاس إخفاء جانب من خُلقهم؟
وهل تراهم ينجحون دائما؟ ولماذا؟

٤ ـ متى يكون الحُكْمُ صحيحًا على النّاس في رأي الشّاعر؟ ولماذا؟

٥ ـ استطاع زهير أَنْ يُصَوِّرَ جانبًا من الحياة في العصر الجاهلي. وَضِّحْ ذلك.

٦ ـ ما الصورة البلاغية في قول الشاعر: (مَنْ هَابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ)؟

٧ ـ (تَخْفَى ـ تُعْلَم) و(زيادة ـ نقص) اذكـر نوع المُحَسِّن البـديعيّ فيما بين القوسين وبين أثره.

٨ ـ الأبيات المختارة جزء من معلقة زهير.
أ) ما مناسبة تلك المعلقة؟
ب) اذكر ما تعرفه عن المعلقات.

٩ ـ سُمِّيَ زُهير (بصاحب الحَوْليات) فما سبب تلك التسمية؟ وما دلالتها؟

١٠ـ لِمَ أعْجِبَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه بِشعْرِ زهير؟